خارج منزل جدي ، على الطريق الدولية ، كانت جماعة من المجاهدين تقف بجانب قوالب من الاسمنت . انهم مجهزون برشاشات وقنابل يدوية . ويتخذون مراكزهم بضع دقائق فقط قبل ان يبدأ المكمن . ويجري عمي جيئة وذهابا وهو يصدر التعليمات . وتصل قافلة الشاحنات . ست سيارات شحن مغطاة بالكانفاس والحبال السميكة . متجهة على الطريق الى جبل الكرمل . سائق واحد وراكب واحد في كل شاحنة . وانا اربض قرب النافذة ونراع ابي تحيط بخاصرتي . الجميع في الغرفة يراقبون . وعلى حين غرة توجه نيران المدافع الرشاشة نحو الشاحنات . وتنفجر القنابل اليدوية . ويطلق الرصاص بلا انقطاع لاكثر من دقيقة . وتشتعل النار بسيارتي شحن . ولا اعرف اين انظر . ثمة شيء يحدث في جميع الاتجاهات ، ولجميع الرجال ، ولجميع الشاحنات . واظل اراقب الشاحنة الاقرب الى قوالب الاسمنت ، واري السائق واحدى يديه على مقود القيادة ، واليد الاخرى تمسك بمسدس يضعه في الخارج ، بلصق الحاجب الزجاجي . معاونه في القيادة ، بجواره ، ميت ، وجسده متدل نصفه من الباب المفتوح . ويقفز الرجل الآن من الشاحنة ويحتمي وراء بعض قوالب الاسمنت . ويربض هناك وهو ما يزال يمسك مسدسه بيده .

عندما يصل الجنود البريطانيون في دباباتهم وشاحناتهم العسكرية ، يعود عمي ورجاله بسرعة الى بيوتهم ومعهم اسلحتهم . ثمة جثة في الشارع . والشاحنات تحترق . وتملأ رائحة دخان البنادق الهواء . والرجل الواقف وراء قوالب الاسمنت يلوح للجنود . واراه وهو يسير مبتعدا معهم والوح له ، بتردد وبراءة . وابدأ في ان اهبه تاريخا خاصا اخلقه له . حياة خاصة تتزخرف مع مرور الوقت . وقد عاشت ذكراه معي منذ ان تركت فلسطين في العام ١٩٤٨ ، منذ ان سطحت القنابل بلادي ، وعرت المراسيم الغابات ، وتاريخنا ، من استعارات الأمل الى ان لم تعد اية حشرة ، اية كلمة ، تستطيع ان تجد مكانا لتختبىء .

بعد ان انقذ الجنود الرجل ، مكث الجنود والدبابات في الجوار . وبعد فترة وجيزة يصل المزيد من الجنود . المئات منهم ، بشعرهم الاشقر وانوفهم المنمشة والوشوم .

ونسمعهم يتسلقون درجات السلم . ان جزء جدي من المنزل هو على الطبقة الثانية من مبنى مؤلف من طبقتين . ونسمع اصواتا اجنبية . انها دائما اصوات اجنبية . اجانب يقولون لنا ماذا نفعل . يأمروننا بفتح الباب . ويصرخون شيئا حول السلطة الممنوحة لهم من ملك انكلترا . هكذا كانت الحال في تلك الايام ... ملك انكلترا يمنح شعبه سلطة لاصدار الاوامر في فلسطين . وفي الهند . وافريقيا . وكينيا . وهونغ كونغ . وبالطبع ما كان اي انكليزي ليسمح لنا بان نرسل اشخاصا الى انكلترا ونمنحهم سلطة دفع الرجال والنساء والاطفال الانكليز يمينا وشمالا .

يندفع الجنود داخل بيتنا . ستة او سبعة منهم . ونساق الى احدى الغرف . ويسألون والدي اذا كان لديهما اسلحة حول المنزل . ونحن نقف ، جميعنا ، وانرعنا مرفوعة . الا ان امي تبدو مضحكة ، بسبحة صلاتها فوق رأسها ،تتمتم تعاويذ لتطرد الارواح الشريرة . ويفتح الجنود خزائن الثياب ، ويحطمون المنضدة المزينة ، ويقذفون بماكينة خياطة جدتي عرض الحائط . ويخربون المكان . والجنديان اللذان يقومان بمعظم التفتيش والنهب ، يصرخان